خصائص الموهوبين

تتفق إلى حد كبير خصائص المبدعين والموهوبين مع خصائص الصحة النفسية السليمة تلك التي تكمن في قدرة الإنسان على تحقيق التوافق بين جنباته الشخصية المختلفة - عضويا ونفسيا واجتماعيا ووجدانيا، وبين واقعه، والعالم الذى يعيش فيه، والرضا عن مواطن الضعف ومواطن القوة في صلب تكوينه، ولكن بغير استكانة بل بسعي يبلغ حد التمرد على واقعه وعلى نفسه، فسوية الإنسان تكمن في قدرته على التجاوز والعلو والتمرد على ما هو قائم إلى ما ينبغي أن يكون.. وفي رحلة التجاوز والعلو يكابد الكثير من القلق والمعاناة والألم.

وبعبارة أخرى فإن السوية تعني درجة هينة من العوارض المرضية، فكل إنسان يكابد القلق كخاصية وجودية تمثل اللب والصميم من وجودنا، ويعايش الاكتئاب كعرض ملازم للوجود الإنساني، ويفتش عن نفسه، باحثا عن موقع متسام في صميم العالم، مشبعا نرجسيته بغير إفراط مرضي يبلغ به إلى حد اشتهاء الذاتي وتوثيينها، بل على نحو يتحقق معه إحساس بالذات من خلال هذا المدد النرجسي الذي يأتينا من الآخرين، ويدفع الحياة دفعًا إلى الأمام، فمن ذلك الإنسان الذى لا يريد أن يعرف أبعاد نفسه من خلال الآخرين، في حالة المبدع يبلغ إلى حد تقدير الذات من خلال استحسانات الجماهير لإبداعاته الخلاقة.

ورغم هذا فالإنسان يعيش الإحساس بالخوف، وبفقدان الأمن.

ولولا الخوف وفقدان الأمن ما تقدمت الحياة خطوة إلى الأمام، فالخوف هو الذى دفع الإنسان إلى أن يحتميَ بالكهوف، من الكوارث الطبيعية ومن الحيوانات المفترسة، التى كان يصورها على جدران كهوفه، مقطوعة الرأس، تخيلا منه، بأنه هو الذى قطع رءوسها وانتصر عليها، وأبادها تمامًا، وتطور الكهف فأصبح الآن كهفا نوويا باردًا، تختزن فيه كل ما يبيد الإنسان، فى باطن الأرض، وفوق الأرض، وفى أعماق المحيطات وفى أفلاك السماء، تحت وهم الدفاع عن الإنسان، ضد ماذا؟ ضد خوف عارم ومتأصل فى صلب تكويننا.

على أية حال فإن اللاسواء عرض من عوارض الوجود الإنسانى، ملازم للإنسان مصاحب له.

والفرق بين السواء واللاسواء يكمن فى الدرجة وليس فى النوع، فالإنسان يكابد الصراع والإحباط والتوتر، ويسْعى إلى التطلع إلى الأمام، وإلى بلوغ أقصى ما تستطيع طاقاته أن تبلغ إليه، فتطوره شوط بغير انتهاء، وأن الإنسان إمكانية مفتوحة تتجه صوب ما يستطيعه الإنسان ويسعى إليه من حيث هو وجود إنسانى فسيح يتجلى فى ثراء نفسى وعقلى ممتلئ، مفعم بالإمكانات والقدرات، وأن وجوده قائم على دعم انتشاره الإنسانى باستمرار وتحقيق نموه المتواصل.

وهنا نردد مع مننجر Menninger قولته المأثورة (السوية فى الحياة خرافة) فهى مقولة كاشفة لمعنى الوجود الإنسانى فى أوضح صوره.

ونردد أيضا قول أبى حامد الغزالى:

النقص في الوجود عين كماله !

ولو استقام القوس ما رمى !

ومعنى هذه العبارة أن النقص الكامن فينا هو الذى يدفعنا إلى التطور!

وثمة أسطورة إغريقية تقول: (لا يخلو إنسان من كعب أخيل). وأخيل هو بطل هوميروس الشهير في الإلياذة الخالدة، فقد غمرت الآلهة أخيل في نهر الخلود، ممسكين به من كعب قدمه حتى لا يغرق، فكانت الرماح والسيوف تتكسر على صدره الخالد، حتى إذا أدرك أعداؤه أن كعبه لم يغمر في ماء الخلود، صوبوا عليه سهما ضعيفا، فقتله في الحال.

ودلالة الأسطورة: إن الإنسان لا يخلو من نقاط ضعف ونقص!

ومما سبق يتضح أن السواء معنى نسبي وأن تطور الإنسان يكمن في إحساسه بهذه النسبية النفسية، وبقدرته على تجاوز نفسه والتسامي فوقها.

ولعل من أهم ما يتصف به المبدع والموهوب هو قدرته على تحمل تناقضات نفسه، في تواصل مع متناقضاته الداخلية والخارجية، يحقق له العلو باستمرار عن طريق الإنتاج الإبداعي.

وهذا ما سوف نكتشفه عند استعراض بعض جوانب شخصية جون استيوارت مل، وتشرشل ودكتور جونسون ونيوتن وكافكا وغيرهم من المبدعين الذين بهروا الدنيا بإبداعاتهم الخلاقة وصروحهم العلمية الرائدة، وقيادتهم الحكيمة لشعوبهم بما ينطون عليه من كارزما في الحرب العالمية الثانية، كما هو الحال مع ونستون تشرشل..

في سنة ١٩٧٢ ألف انطونى ستور Anthony storr وهو عالم نفس بريطانى شهير كتاب أسماه (ديناميات الإبداع) The Dynamics of creation تناول فيه بعض الشخصيات الإبداعية بالتحليل، فبين أن كثيرا منهم تكون خلفيته النفسية اكتئابية، غير أنه أوضح أن الكتابة وغيرها من الأنشطة الإبداعية قد تساعد الاكتئابيين من ناحيتين: الأولى أن الاكتئابى قد يكتسب مزيدا من الإحساس بكفاءته واستطاعته أن ينتج شيئا على الإطلاق، والثانية أن ما أبدعه إذا نشر أو عرض وتقبله الناس فإن ذلك سيدعم تقديره لذاته تدعيما كبيرا يتكرر كلما أنتج شيئا جديدا، فالمبدع يتوحد بدرجة كبيرة مع ما ينتج، ومن ثم يكون أكثر حساسية بشأنه، ولعل ذلك أحد الأسباب الشائعة لتوقف الإبداع أو عدم القدرة على إتمام العمل الذى بدأ فيه المبدع، هو الخوف من النقد العدائى عندما يعرض على الناس فى النهاية. وكانت الروائية الشهيرة فيرجينيا وولف مثالا للكاتب الناجح الذى ظل طوال عمره شديد الحساسية للنقد، وكانت تنتابها نوبات من الاكتئاب ذات شدة ذهانية، وفى النهاية عندما لم تستطع مواجهة نوبة وشيكة الوقوع أقدمت على الانتحار.

ويقال أن ونستون تشرشل كانت تنتابه نوبات اكتئابية خلال فترات السكون وعدم الحركة، مثلما حدث له أثناء اعتقاله لفترة قصيرة من حرب البوير، أو عندما يصادفه فشل ما، مثلما حدث للحملة التى دبرها فى الدردانيل خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وكان فى أحسن حالاته خلال الحرب العالمية الثانية، حين كان هتلر عدوا شرعيا لا يشك أحد فى ضرورة هزيمته. ولقد تعامل تشرشل بشكل يدعو إلى

الإعجاب مع تكوينه النفسي المرضي الكامن حتى استطاعت الشيخوخة وتصلب الشرايين القضاء على إرادته، وغرق فيما يبدو أنه نوع من الغيبوبة الاكتئابية خلال سنواته الأخيرة.

ويعتبر جون ستيوارت مل، نموذجا للشخص الذي عاني من نوبة حادة من الاكتئاب خلال حياته الراشدة، أملته لها بوضوح تنشئته الأولى فكما يعرف الجميع تميز جون ستيوارت مل بنضجه العقلي الفذ المبكر، وتولى أبوه جيمس مل بنفسه أمر تربيته وتعليمه، مما أدى بالطفل الصغير إلى أن بدأ دراسة اليونانية وهو في سن الثالثة، وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد قرأ كل مؤلفات هيرودوت، ومحاورات أفلاطون الستة الأولى وغير ذلك كثير، يقول في مذكراته كان من المستحيل تمامًا أن أكون قد فهمت محاورة أفلاطون (ثيتيوس) ولكن أبي خلال تربيته لي كان يطلب مني الحد الأقصى الذي يمكنني أن أذهب إليه قراءة وفهما.

ورغم أن (مل) قد سبق أقرانه بربع قرن، إلا أنه منع من الاختلاط بهم، حتى إنه لم تتكون لديه أي فكرة عن أن إنجازاته فذة إلا في الرابعة عشرة من عمره. وكان يقارن نفسه بأبيه فيشعر بالدونية، فضلا عن ذلك لم يشارك في أنشطة أو ألعاب مما كان يمارسه أقرانه، ولهذا كانت مهاراته الجسمية في أدنى مستوى، وظل عديم الدراية بكل ما يتعلق بالمهارات اليدوية، كما أن والده - وهو مفكر وفيلسوف - كان ذا طاقة وعزم، ولهذا يعلق (مل) على ذلك بقوله (غالبا ما ينشأ أولاد الأبوين النشطين أقل نشاطا، لأنهم يعتمدون على أبويهم، ويقوم نشاط الآباء مقام الاثنين.

ونقول عن (مل): إن قدراته كانت فائقة، ولولا تهيئته بحكم عناصره التكوينية لاستيعاب العلم وما يعطى إليه ما بلغ هذا القدر من الإمكانية، ففى الثالثة قرأ الكلاسيكيات اليونانية، وفى الثامنة درس اليونانية واللاتينية، وفى الوقت نفسه كان معلمًا لأخته الصغرى، وفى سن الحادية عشرة درس الرياضيات، وبعد ذلك ابتدع منطقا جديدًا، هو المنطق الاستقرائى أو التجريبى.

وكل طفل يستطيع أن يكون جون استيوارت مل، إذا لم نقهر فيه الدهشة، ونجتث منه الشوق العارم إلى المعرفة ونحبطه قهرًا كلما سأل سؤالا غير مألوف أو اكتشف تناقضا حادًا فى سلوكنا، أو فى الواقع الذى يعيش فيه.

وقيمة المبدع تظهر فى قدرته على إضفاء القيمة والمعنى على ما يفعله وذلك عن طريق الموقف من الحياة، على نحو يصل فيه المبدع نفسه بالعالم وبالناس، فإذا تعطلت الحركة بين الداخل والخارج، بين ذات المبدع والعالم الخارجى، توقف الإبداع.

وثمة نموذج آخر فريد فى تكوينه، فريد فى خصائصه، على نحو يجعلنا نفكر جليا فى ضرورة إعادة النظر فى معنى السواء الإنسانى وهو نموذج اسحق نيوتن.

فقد أظهر نيوتن العديد من السمات ذات الطبيعة الفصامية، فقد كان يميل للعزلة بشكل ملحوظ ولم ينشىء أى علاقة حميمة مع الجنس الآخر، كما كان شديد الشك، يرفض أن ينشر أعماله، وميالا إلا اتهام

الآخرين بسرقة اكتشافاته وعندما جاوز الخمسين من عمره أصيب بانهيار ذهاني غلبت عليه الأفكار البارانويدية (أوهام العظمة والاضطهاد). ويمكن أن نرجع نشأة بعض متاعبه الانفعالية على أقل تقدير إلى المعاناة التى تعرض لها فى طفولته المبكرة.

كان نيوتن طفلا مبتسرًا (أى ولد قبل أن يقضى مدة الحمل كاملة فى رحم أمه)، توفى أبوه قبل ولادته وتلقى العناية الكاملة من أمه فى السنوات الثلاث الأولى من عمره، إلا أنه بمجرد انقضاء عيد ميلاده الثالث تزوجت أمه مرة أخرى، ولم تكتف بتقديم زوج أم غير مرغوب فيه، بل زاد الطين بلة، أن تقوم جدته بتربيته، بينما انتقلت هى مع زوجها إلى منزل آخر، ونحن نعلم من كتابات نيوتن كيف أنه أحس بما فعلته أمه وكأنه خيانة عظمة، ومنذ تلك اللحظة لم يول ثقته أى إنسان آخر.

والسبب الثانى فى تجنب إقامة علاقة حميمة مع الآخرين هو الخوف من سيطرة حكم الآخر إلى الدرجة التي يفقد فيها المرء هويته كشخص مستقل، ونحن جميعا نبدأ الحياة تحت رحمة الكبار الذين يفوقوننا قوة، وكلنا يسعى بطرق مختلفة للوصول إلى درجة من الاستقلال.

ويمكن اكتشاف النزوع إلى الاستقلال عند الأطفال الصغار، فالكثير من ألعابهم تدور حول إظهار أن بإمكانهم أن يهزموا الكبار ويصبح كل منهم ملك القلعة، والإبداع لا يمكن ان يتحقق إلا من خلال قوة شخصية وجود، يتمتع بإصرار على التقدم إلى الأمام.

وثمة نموذج آخر على أن المبدع يمكنه أن يتحمل تناقضات نفسه فها هو صمويل جونسون وهو كاتب وناقد ومعجمى إنجليزى، كان يعانى

من اضطراب يسمى كوريا، وهو اضطراب يتميز باختلاجات وتشنجات في الوجه والأطراف ومن أعراض مرضية أخرى.

ولكنه كان يستطيع أن يتحكم في حركاته وتشنجات وجهه وفي كلامه عندما يريد، مما يشير إلى أن هذه الأعراض ناشئة عن صراعات نفسية وليست عن عوامل عضوية.

□□□

ثمة خاصية مشتركة بين المبدعين ، تكمن في قدرة المبدع على تحمل تناقضات نفسه، والارتفاع فوق مواطن ضعفه، وعدم الاستسلام للعجز والإحباط، والتمكن من التواصل مع نفسه، مع إمكاناته وقدراته، مع ثرائه الإنساني الفسيح.

وهذه القدرات النفسية التي يتمتع بها المبدع، بما تنطوي عليه من مرونة في التعامل مع الأفكار والموضوعات والأشياء تلزمنا بإعادة النظر في مفهوم الصحة النفسية لدى هؤلاء المبدعين، فرغم أن بعض السمات الخاصة بالمبدعين تضعهم ضمن المضطربين نفسيا، إلا أن طاقاتهم الإبداعية، وإمكاناتهم الخلاقة تجعلهم أشبه ما يكونوا بالقاطرة التي عليها أن تجر باقي العربات الإنسانية نحو التقدم إلى ما هو أفضل.

وتأسيسًا على ما سبق، نستطيع أن نقول: إن المبدعين والموهوبين يتصفون بخصائص لعل من أهمها: الانفتاح على الخبرة، المرونة العقلية والتكيفية، المبادأة في المواقف، المثابرة وقوة العزيمة، التفاؤل والمرح وعمق الانتماء، التعطش المعرفي، والثقة بالنفس وحب الاستطلاع

والاعتماد على الذات.. وما إلى ذلك من سمات نفسية تضع المبدعين ضمن معايير الصحة النفسية.

ورغم الثراء النفسى والمعرفى والعقلى الذى يتمتع به المبدع والموهوب إلا أننا سنركز على بعض الخصائص التى نراها محورية فى شخصية المبدع والموهوب أيضا.

ويتمثل بعض هذه الخصائص فى:

١ - الثقة بالنفس.

٢ - المبادأة والقدرة على اقتحام المجهول.

٣ - التمرد الإيجابى.

٤ - خصوبة الخيال.

٥ - المرونة العقلية والانفعالية.

٦ - الحساسية إزاء المشكلات.

٧ - القدرة على الدهشة الفعالة.

٨ - تحمل الإحباط.

أولا: الثقة بالنفس

تبدأ جذور الثقة بالذات والطفل ما يزال فى المهد صبيًا، حيث تحتل السنة الأولى من عمره، وتتميز هذه المرحلة بشعور الطفل بالثقة فى نفسه وفى غيره من الناس، وفى العالم بوجه عام، وقد يبلغ فى ثقته حدًا لا نهاية له، وقد يفقده، ومن ثم يفقد معها الجوانب المبدعة فى تكوينه،

فكل طفل هو طفل موهوب ينطوى على إمكانات وعلى قدرات وعلى مواهب، وتتوقف تنمية هذه القدرات وهذه المواهب على نوع الرعاية التى يتلقاها داخل الأسرة، فالطفل الذى تلبي حاجاته، ويجد من يدلله ومن يتحدث إليه، ويشاركه اللعب والضحك فيتصور العالم مكانا آمنا، والناس أهلاً للثقة، إما إذا لم تتوافر الرعاية النفسية والاجتماعية والعضوية للطفل داخل أسرته، فإنه يشعر بأن الناس غير جديرين بالثقة وأن حياته غير آمنة، ويتكون لديه شعور بالخوف وفقدان الثقة فى نفسه وفى الآخرين، وفى العالم من حوله.

والشعور بالثقة أو فقدانها لا يتكون فى السنة الأولى من حياة الطفل بدرجة من الثبات يتعذر معها تغيير الاتجاه، فالطفل قد يجد فى المدرسة وفى المحيطين به ما يقوى لديه دعائم الثقة بالنفس وبالقدرات والإمكانات.

وبغير شك فإن الثقة بالنفس تمثل البنية الأساسية للشخصية. فعن طريق الإحساس المتين بالذات يتحدد، مدى قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه.

ويرجع ذلك إلى أن القدرات الحسية والحركية والعقلية التى تنمو وتعبر عن نفسها عند الطفل والتى تستغرق السنة الثانية والثالثة من عمره.

وفى هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يمشى وأن يتسلق وأن يفتش عن حاجاته، وأن يفتح المغلق، ويغلق المفتوح، وأن يجذب الأشياء وأن

يدفعها، ويمسك بقبضته، والطفل بهذه القدرات الجديدة فخور بنفسه، يحب أن يعمل بنفسه كل شيء، يأكل ويرتدى ملابسه، إنه يتخلق كموجود مستقل، من خلال تفتح قدراته فى كل منشط من مناشط الحياة.

ونموه كموجود مستقل يتوقف على طبيعة التنشئة الاجتماعية التى يحيا فى كنفها داخل الأسرة، والتى قد تنمى لديه الاعتماد بأنه قادر على التحكم فى نفسه وفى دوافعه وفى إمكاناته البدنية وفى بيئته، أو قد تسلبه الشعور بالاستقلالية ومن ثم الخجل والشك فى قدراته وكل من الرعاية المفرطة أو الرعاية المتسلطة والمتشددة يسلب الطفل الشعور بالاستقلالية الذاتية، ويجهض لديه تلقائيات القدرات الإبداعية، ويحوله إلى موجود يستطيع بغيره ولا يستطيع بنفسه.

ثانيا: القدرة على المبادأة واقتحام المجهول

المبادأة أمر لا مناص منه للمبدع والموهوب، فإذا ضعفت المبادأة - وتلاشت، فإنه لا يستطيع أن يقتحم المجهول، ومن ثم يعيش نهبا للقلق متوائما، وفى التوائم قهر واستسلام لما هو موجود.

وتقوم المبادأة على الثقة بالنفس، وعند الطفل تتميز القدرة على المبادأة بتميز قدراته الحسية والحركية والعقلية والوجدانية واللغوية.

فالطفل فى هذه المرحلة يستطيع أن يجرب الكثير من الأشياء، وأن يبادر بأنشطة حركية يقوم بها من تلقاء نفسه، محاولاً السيطرة على البيئة المحيطة به، مخترقًا حجب المجهول، منقبا متفردًا فى تصرفاته،

لا يكتفى بتقليد الآخرين، بل يقوم بكل ما من شأنه أن يقوى سيطرته على ما يحيط به.

وفى هذه المرحلة (من الرابعة حتى الخامسة) تتمايز قدراته اللغوية والتصويرية فى هيئة حوارات وتصورات يتخذ فيها فعل المبادأة بكل تلقائية، وينمو لديه الضمير الخلقى.

وهذه المرحلة أيضا تعتمد على الأسرة التى تسمح للطفل بأن يبادر وأن يعبر عن ذاته وعن إمكاناته مؤكدا نفسه فى المواقف، ومبادرًا بغير خوف أو إحساس بالذنب.

ولكى تتغلب روح المبادأة على الشعور بالذنب يجب على الأسرة أن تستجيب لاهتمامات الأطفال وأن تشجعهم على الأنشطة التى تنمى فيهم المبادأة كالجرى وركوب الدراجات، وممارسة الرياضة واقتحام المجهول وركوب الخطر، ومن ثم لا يسخران من نشاطاته ولا يصدانه عن التساؤل حتى لا ينمو لديه الشعور بالذنب، وأنه غير مستطيع بنفسه، بل بمساعدة الآخرين، محاصرًا فى تصرفاته بترسانة من الأوامر والنواهى، أى افعل ولا تفعل.

إن قصة (بيبى لنج شترومف) والتى بيع منها ملايين النسخ حتى الآن، وترجمت إلى معظم لغات العالم، ورشحت السيدة (اُسترید لین جرين) كاتبتها لنيل جائزة نوبل عدة مرات، كانت قصة فتاة صبورة مقدامة، متعطشة إلى المعرفة، معتمدة على ذاتها، متمردة على أوضاع

تحد من قوة الأطفال وخيالهم الخصب، رافضة كل ما من شأنه أن يعوق حركتها وسموها واندفاعها التلقائي المبدع.

فالإبداع عند الأطفال يتحقق من خلال الثقة بالنفس وبالقدرات وبالعالم وبالقدرة على المبادأة.

ثم تأتى مرحلة نمائية تالية يمتد فيها عمر الطفل من السادسة وحتى البلوغ، وفى هذه المرحلة يهتم الطفل (بالكيف) على حساب (الكم)، فالطفل يهتم بالكيفية التى تصنع بها الأشياء، وجوهر حركتها، والوظيفة التى تؤدى بها، ومن ثم كان الاجتهاد والمثابرة وإطلاق العنان للتصورات العقلية سمة مميزة لهذه المرحلة.

وهنا ينبغى تشجيع الأطفال على الجهد والمثابرة فى صنع الأدوات وفى محاولة إبداع بعض الأشياء، لنماذج الطائرات، وبناء المنازل أو الطيور أو التطريز، وما إلى ذلك.

وإذا نحن شجعنا الطفل على ذلك نمت قدراته وأحب العمل كقيمة، وتفتحت مواهبه، وتعلم كيف يكون الجهد، وكيف يكون الإصرار لبلوغ الأهداف، وتولد لديه البحث عن الجوهر واللباب والكيفية التى تصنع منها الأشياء.

أما إذا سخرنا من قدراته، وصورنا له كل ما يفعله على أنه عبث فى عبث، ووهم، وأنه لا يتمتع بأى قدرة، وليس وراء ما يفعله فائدة أو قيمة، انتابه شعور عميق بالخزى من قدراته، والإحساس بالدونية والعجز والإحباط

وهنا تلعب المدرسة دورًا كبيرًا في تشكيل وصياغة ومكونات الطفل النفسية والإبداعية، باعتبارها عالمًا أكبر من أسرته، غني وثري بتفاعلاته الاجتماعية وبمجالاته المختلفة، وأنشطته المتنوعة. فإذا كانت المدرسة مهيئة لذلك استطاعت أن تكتشف المواهب على نحو مبكر، وأن ترعاها وأن تقدم إلى المجتمع بعد أن توصل فيها روح الانتماء والعمل على نحو مبدع.

ثالثاً: التمرد الإيجابي

الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يرفض أن يكون على ما هو عليه، وهذا سر تقدمه، وسر إبداعاته الخلاقة، فعلى مسار تاريخه الحضاري، لم يستكن الإنسان لوحدته مع الطبيعة، بل حطم هذه الوحدة بالتمرد الإيجابي على الطبيعة، فهو ليس كالحيوان، وإن كان جزءًا من الطبيعة، فالحيوان لا يستطيع أن يتجاوز الطبيعة، فليس له وعي بذلك، وجوده وجودٌ قَسريٌ تحكمه مسارات غرائزية لا تبديل ولا تغيير فيها.، أما وجود الإنسان فهو وجود بالحرية، وجود خلق بعقل فريد وقدرات متميزة وإمكانات تتواصل بغير انتهاء، ومواهب شتى وخيال خصب، وبهذا الزاد استطاع الإنسان أن يتجاوز نفسه، وأن يعلو فوقها، لأنه كائن مفارق، متمرد على ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون، في المستقبل.

وهذا التجاوز وتلك المفارقة وذلك التمرد الإيجابي، ألصق ما يكون بالمبدع والموهوب، فلا يوجد مبدع يحتمل الواقع، سواء أكان واقعا علمياً أم أدبيا أم تكنولوجيا - على ما هو عليه، إنما لابد من التمرد من أجل التغيير.

والإبداع يبدأ من الواقع، ومن فهمه، ومن اكتشاف ما فيه من مشكلات وثغرات ومحاولة تقديم حلول إبداعية لها.

والتمرد الإبداعي، ليس تمردًا لذات التمرد، بل هو نضال إبداعي من أجل الارتفاع فوق السائد والمألوف والراكد إلى حيوية الإبداع، إلى التغير المستمر الذي يعني الاستقرار المستمر للمجتمع، فالشيء الذي يتحرك ويتغير يظل مستقراً، أما الساكن الآسن فمصيره الأفول، فالعالم كله في حركة، وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه الحركة الكونية بالإبداع.

وقديما قال هيرقليطس: إنك لا تنزل النهر مرتين فإن مياهًا جديدة تجرى من تحتك.

فكل شيء في حالة من التغيير، في صيرورة لا تعرف التوقف، وعلى المبدع والموهوب أن يستجيبا لهذه الصيرورة بالإبداع.

رابعًا: خصوبة الخيال

لا إبداع بغير خيال! وقد رأينا كيف أن عالما كبيرًا مثل (أنشتين) يجعل العلم كله ثمرة للخيال الإنساني.

وطفولة الإنسان ثرية جدًا بالخيال، وكلما كان الخيال ممتلئا وعميقا كان دليلاً على قدرة إبداعية وتصورية كبيرة.

فإذا كان العلم يعتمد على الخيال، الذي هو مفارقة ومجاوزة للواقع إلى المستقبل، فإن الأدب والتصوير والنحت والشعر والقصة كلها أشكال إبداعية تعتمد أساسًا على الخيال المبدع.

وأشد العلوم تجردًا وموضوعية لا تكون إلا عبر الذاتية التى تتصف بالنضج والوعى والإصرار والخيال، ثم إن الخيال عمل من أعمال العقل، فالعقل يتصور ويتخيل، وما من حقيقة علمية إلا وتم تصورها وتخيلها قبل وضعها.

فالخيال يسبق كافة المراحل العلمية، وكلما كان نصيبك من الخيال الخصب كبيرًا، كان حظك من الإبداع كبيرًا أيضا.

والطفل بطبيعته يميل إلى أعمال خياله، وعلى الأسرة أن تطلق لتصوراته العنان لتنطلق، ومعظم تساؤلات الأطفال يكتنفها خيال مبدع وخلاق، والسخرية من خيال الأطفال تولد الإحباط لديهم على نحو يجعلهم يشعرون أن الخيال اغتراب عن الواقع، وتفتيت للطاقة، فى حين أن الخيال هو الذى صنع النظرية النسبية التى ساهمت فى نقل التكنولوجيا إلى ما نحن عليه الآن.

وينبغى التفرقة بين الخيال المرضى والخيال العلمى الخصب:

الأول يأتى كرد فعل للاحباطات وللشعور بالنقص والدونية ويكون أشبه بأحلام يقظة تعويضية، عن شعور بالنقص والدونية.

أما الثانى وهو ما نقصده فهو الخيال المبدع، الذى علينا أن نشجع أطفالنا على استخدامه، على أن يتخيلوا أوضاعا جديدة وعوالم جديدة وسيارات جديدة ومساكن جديدة.. الخ.

خامسًا : المرونة العقلية والنفسية

المرونة معيار الإبداع، والمرونة تعنى تقبل الأفكار رغم تباينها، إنها التسامح الذى يقوم على التباين، والمرونة تعنى انفتاح الذهن، وقدرته على التعامل مع الأفكار دون انغلاق ذهنى وجمود فكرى، أى دون (دوجما) و(الدوجما) ومن حيث هى جمود وانغلاق وثنائية في التفكير القطعي – ضد التسامح الذى يعنى حرية التفكير وحرية التأمل.

والشخص (الدوجماطيقي) أى الشخص المغلق على ما يؤمن به من أفكار، يحول أشد الأفكار تفتحًا إلى منظومة مغلقة من الأفكار لا تقبل المناقشة أو الحوار، وهو شخص مؤمن بالفكرة الواحدة والرأى الواحد والتوجه الواحد، والغاية الواحدة، ولا توجد بينه وبين الآخرين نقاط التقاء أو حوار. إنه شخص متعصب، جامد والتعصب والجمود لا يمكن أن يؤديا إلى الإبداع، فالإبداع يحتاج إلى مناخ من الحرية ومن التسامح ومن تقبل الآخر، حتى يستطيع المبدع أن يقدم إبداعاته ويتمكن الموهوب من التعبير عن مواهبه.

وعلى مسار التاريخ الإنسانى، كانت الفترات التى تتسم بالجمود الفكرى والعقائدى هى الفترات التى كان ينحصر فيها الإبداع، كما هو الحال فى العصور الوسطى الأوروبية التى حاكمت جاليليو وأحرقت برونو، أما الفترات اللامعة من تاريخ الإنسان الحضارى، فهى تلك التى كان يسود فيها التسامح، وينطلق فيها العقل بمرونة وانفتاح معبرًا عن الأفكار والحقائق العلمية.

والمرونة النفسية ضرورة لا مناص منها للإبداع، فما هو عقلى إنما هو تعبير عما هو نفسى، فحينما تكون الذات مهيئة للتسامح رغم التباين يكون العقل منفتحا ومنقبا ومبدعًا.

وعند «جيلفورد» يقابل المرونة نفسيًا ومنطقيا عامل التصلب أو الجمود والمرونة تنقسم إلى قسمين: مرونة تكيفية ومرونة تلقائية.

تشير المرونة التكيفية إلى قدرة الشخص على تغيير الوجهة النفسية التى ينظر من خلالها إلى حل مشكلة معينة، وعلى هذا النحو يمكن أن تعتبر الطرف الموجب المقابل للتصلب العقلى ولجمود الذهن. أما المرونة التلقائية Spontaneous Flexibility ، فتشير إلى القدرة على سرعة إنتاج أكبر عدد من الأفكار أزاد موضوع معين، أى أن الشخص الذى يتمتع بمرونة تلقائية يكون بمقدوره إطلاق الكثرة من الأفكار حول موضوع معين.

ويسهم التعليم إلى حد كبير فى ترسيخ الأفكار الواحدة والتوجهات الواحدة والمعانى الواحدة عن طريق نظام الامتحانات الذى يطلب من الطالب إجابة نموذجية واحدة، تحفظ كما هى، وتكتب كما هى، ومثل هذا النظام التعليمى لا يفرز إبداعًا بل يرسخ الجمود العقلى والمعرفى والنفسى.

ومن هنا فإن الإبداع لا يقوم إلا من خلال نسق تعليمى متميز يقوم على التسامح والانفتاح العقلى والنفسى.

سادسًا: الحساسية إزاء المشكلات:

ثمة إجماع بين المشتغلين بالإبداع على أن من أحد جوانب الإبداع الأساسية هى القدرة على التقاط المشكلات التى يموج بها الواقع.

وهـذه المشـكلات قـد تكـون علميـة أو تكنولوجيـة أو فكريـة ، أو اجتماعية ، المهم هو فى كيفية إثارة المشكلات، ومحاولة التعامل معها وإيجاد حلول إبداعية لها.

فالمشكلة هـى التى تثير الكوامن الإبداعيـة ، وتدفعنـا إلى محـاولات إيجاد حلول غير تقليدية لها أى حلول إبداعية.

ويصبح السؤال هو كيف يمكن تدريـب وتنميـة الإحسـاس بالمشـكلات التى تخص الأطفال والكبار أيضا.

ولا يمكن أن يكون هناك إبداع بغير إحساس عميق بالمشـكلات وعلى هذا فنحن نريد تعليمـا ليس جـاهزا ، بـل تعليما يثير إشـكاليات لـدى الطلاب ، ليتعلموا من خلالها أن التقدم رهـين بالتقـاط إشـكاليات الواقـع ومحاولة إيجاد حلول لها.

سابعا : الدهشة الفعالة

وقد تحدثنا عن هذا العنصر كثيرا ، وبينا أن الدهشة محـور الإبـداع ، ومحـور الجـدة ، وأن الدهشـة تثير التسـاؤل ، وفـى التسـاؤل بحـث عـن الحقيقة.

ولهذا يكون من الضرورى أن نربى أطفالنا على الدهشة وإثارة التساؤل بغير خوف أو قهر أو إحباط، لأن الإحباط يولـد شـحنات مـن العـدوان ، والعدوان غالبا ما يوجه إلى مصدر الإحباط، ومصدر الإحبـاط هـا هنـا هم الوالدان ، والوالدان بالنسبة للطفل هم موضـوع الحـب الأسـاسى ومـن ثم

يتوجه إلى الذات، إلى ذات الطفل، في صورة مشاعر ذنب وخزى وخجل، وتترسخ هذه المشاعر في ذات الطفل، فكلماهمّ بالتساؤل شعر بالخزى والخجل والذنب، فيؤثر الصمت والسكون، ويغمض عقله عن الدهشة أمام ما يثير التساؤل.

وقديما قالوا: إن الدهشة أم المعارف جميعا، فكيف يمكن تغيير واقع علمي بغير دهشة وبغير تساؤل؟

إن المسئول الأول عن عدم استثارة الدهشة والتساؤل هو النظام الذى يقوم على الحفظ والتلقين والتذكر، فلماذا إذن نندهش. ولماذا نسأل؟ وكل شيء جاهز أمامنا ولا يحتاج إلا لحفظه واسترجاعه وقت الامتحان. ولهذا يكون لزاماً على المدرسة أن تشجع التلاميذ على إثارة التساؤلات وعلى البحث عن الجديد، وعلى الدهشة، كلما بدا أن هناك أمراً غريبا أمام الطفل سواء من الكتب أو المدرسين أو المدرسة نفسها، فالأطفال هم المستقبل الذي ينبغي أن يتولاه جيل يتمتع بالجرأة والجسارة والقدرة على التساؤل بغير خوف أو قهر أو إحباط

ثامنا : تحمل الإحباط

تكمن السوية في القدرة على تحمل الإحباط، على التعلم من الفشل، على الإصرار على النجاح، وعلى بلوغ الأهداف.

وقد قال سارتر في مسرحية الذباب - إن حياة الإنسان تبدأ من الشاطئ الآخر من اليأس.

ومعنى هذه العبارة أن الفشل مولد للنجاح، وأن الإحباط لا يكون إحباطا إلا إذا نال من تقدير الإنسان لذاته، والإنسان لا يبلغ حد تقدير ذاته وتحقيقها وتوكيدها إلا من خلال حسن استثمار ما لديه من قدرات وإمكانات عن طريق العمل الجاد والعطاء المخلص.

فثمة نوع من الإبداع يطلق عليه تعبير إبداعية الذات، أو بعبارة أخرى الإبداع كأسلوب لتحقيق الفرد لذاته.

وإذا استسلم الإنسان لإحباطات الحياة، فإنها سوف تولد شحنات عدوانية لديه، تتوجه إما إلى الذات في صورة طقوس تعذيبية أو إلى الآخرين، وفي نهاية المطاف يتحول الشخص إلى شخص محاصر باحباطاته، بيأسه، بقلة حيلته، بعوارضه المرضية، ومن ثم لا يستطيع أن يبدع، على الرغم من أن الناس جميعا مبدعون والاختلاف بينهم يكمن في درجة الإبداع والإصرار عليه، والعلو فوق التناقضات، وتحمل الإحباطات والصبر والإصرار على العلم والمعرفة.